الرثاء بين الشيعة والخوارج في العصر الأموي

عبد الله القتم

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب ، جامعة الكويت

الملخص

شعر الرثاء في الأدب العربي معروف منذ أن عرف العرب الشعر، وهو إبراز شعور الشاعر تجاه من رحل عن الدنيا، وزاد هذا النوع من الشعر في العصر الأموي، وخاصة عند الشيعة والخوارج؛ بسبب المصائب التي حلت على هذين الحزبين من قبل الأمويين.

ودأب شعراء الشيعة والخوارج على رثاء قتلاهم بأحر العبارات، وأصدق الكلمات؛ فالرثاء عندهم ليس فيه رياء، أو تزلف، وصاغوا أشعارهم على ذلك الشعور، واستخدموا اللغة المعبرة، والصور البلاغية، والأساليب المختلفة في سبيل إبراز لوعتهم وحزنهم على من غادر الدنيا.

برع بعض الشعراء في نظم الرثاء؛ فمن شعراء الشيعة: أبو الأسود الدؤلي، والفضل بن العباس، وأبو دهبل الجمحي، وغيرهم. ومن شعراء الخوارج: سميرة بن الجعد، وعيسى بن فاتك، وعمران بن حطان، وغيرهم.

وهذا بحث يركز على أوجه الاتفاق والاختلاف بين شعراء الشيعة والخوارج، مع بيان المعجم اللغوي لكلا الفريقين، والصور البلاغية، والاقتباس من القرآن الكريم.

المقدمة

الفن الشعري موجود عند شعوب العالم قاطبة، ومنها الشعب العربي، ونظم الشعراء العرب قصائدهم في هذا الفن، وتعددت موضوعاته، ومن تلك الموضوعات شعر الرثاء؛ حيث يعبر الشعراء عن عواطفهم وحزنهم تجاه المتوفين، وفي التاريخ الأدبي للعرب المئات من قصائد الرثاء؛ بل اشتهر بعض الشعراء في هذا الفن، وقيلت قصائد الرثاء في الأبناء والآباء والأمهات والإخوة والأصدقاء، والقيادات القبلية، والسياسية؛ بل من غير جنس الإنسان، من الحيوان والجماد، وغير هؤلاء من الراحلين.

وإذا استطلعنا تاريخ الشعر العربي نجد أن الرثاء يشمل جميع العصور، وفي العصر الأموي هناك مجموعات سياسية دينية دخلت معارك ومشاحنات بعضها ضد بعض، أو ضد سلطة الدولة الأموية، وسقط في هذه المعارك أفراد وجماعات من المقاتلين، فتركوا وراءهم جراحات وآلاماً وأحزاناً استمرت لفترات طويلة في نفوس محبيهم، وفي هذا العصر مجموعتان خاضتا معارك كبيرة ضد الدولة الأموية؛ هما الشيعة والخوارج، هذه المعارك تركت ندوباً في عمق النفس الشيعية، وفي عمق النفس الخارجية.

في هذا البحث أحاول أن أتلمس جوانب الاتفاق، والاختلاف بين رثاء المجموعتين، وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي بين الفريقين فإنهما يشتركان في معظم الأمور، ثم أتناول المعجم الشعري لهاتين المجموعتين، والأساليب والصور الفنية التي استخدمها كل طرف في رثائه لقتلاه، وما يميز كل فريق منهما، وما يفرق بينهما.

كلام العرب واحد، وطرق الشعراء وأساليبهم مختلفة في التعبير عما يجيش في خواطرهم، وما يرونه من مواقف، وشعر الرثاء تعبير عما يجيش في نفوس شعراء الشيعة والخوارج، فهل يتفقان، أو يختلفان؟

غياب العزيز عن الدنيا يسبب ألماً وحزناً وحرقة في الفؤاد، ومنذ أن كان الإنسان على هذه الأرض وهذه الحالة تعتري كل فرد، يشعر الإنسان

بفقد العزيز على مدى حياته، فقد الأب والأم له لوعة وحزن، وفقد الأولاد له أثر في النفس يفوق كل أثر، ولكن فقد الإمام والقائد الروحي يصيب الأمة بحالة من الحزن والكآبة ما تفوق كل مصاب؛ ولذلك نظم الشعراء القصائد الطوال في رثاء الأئمة والزعماء الروحيين، كما نظموا المرثيات في الأقارب والأصحاب والأحباب.

والعرب في تاريخهم مروا بهذه التجربة، وبصور مختلفة، فعبروا عن آلامهم وحزنهم وكآبتهم في صور شتى؛ منها البكاء والعويل، ومنها الصراخ والجزع، ومنها التذمر والشكوى، ومنها التعبير عن ذلك بتدبيج المقالات، أو بنظم المراثي، وفكرة الموت والفناء وانتهاء الحياة مرتبطة بالفكر الجاهلي؛ لأن الموت شيء غامض لا يدركون كنهه؛ ولذا حفل العصر الجاهلي بمجموعة من الشعراء عبروا عن عواطفهم الجياشة بفقد أعزائهم، ونظموا قصائد ومقطعات حفظها لنا التاريخ الجاهلي.

وفي تاريخ الإسلام مرت هذه الحالة على الأمة بفقد الرموز الدينية للأمة، أو وفاة الزعماء الروحانيين للمجموعات المختلفة، فرثاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أول المفجعات في تاريخ المسلمين، وانبرى الشعراء يعبرون عن حزنهم وألمهم بفقد ذلك الحبيب الذي ملأ عليهم حياتهم بطولها، وأنقذهم من الضلال، ووضعهم على جادة الحق؛ لذا لا عجب أن نجد النواح في كل بيت، كما نظم الصحابة الشعراء القصائد في رثائه، وعبر أهل بيته عن ألمهم وحزنهم بفقد رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وفي صدر الإسلام لعب الرثاء دوراً كبيراً في رثاء خلفاء الرسول - رضي الله عنهم - كما عبر الشعراء عن عواطفهم تجاه من فقدوه من أبطال الإسلام في المعارك التي دارت في حروب الردة، أو في الفتوح، أو المنازعات الداخلية بين المسلمين، وفي خلال معاركها سقط من سقط من المقاتلين، ولكن تركوا وراءهم جراحات لا تندمل، وعبر شعراء الفرق لرحيل هؤلاء الأفذاذ بقصائد رثاء كثيرة[1].

ذكرت كتب اللغة عن معنى رثاء: [2]

الرثية: وجع المفاصل، والرثية: الضعف، رثى ورثيتُ الميت رِثاءً، ورِثاية، ومَرثاة، ومَرثية. ورثوته: إذا بكيته، وعددتُ محاسنه. وقيل: الرَّثيُ، والمرثِية: البكاء على الميت. وامرأة رثّاءة: كثيرة الرثاء. ونستطيع القول إن الرثاء استعمل في النوح على الميت؛ في نثر، أو نظم شعر. وشاع عند العرب الرثاء في جميع العصور؛ ومنذ العصر الجاهلي حتى عصرنا هذا يتداول الرثاء بين الشعراء، وقال فيه معظم الشعراء.

الرثاء عند العرب

تحدث نقاد العرب عن شعر الرثاء عند العرب، منذ أن عرف العرب الشعر، وقد خصص محمد بن سلام الجمحي طبقة لشعراء الرثاء وهم أربعة: متمم بن نويرة اليربوعي، والخنساء تماضر بنت الشريد السلمي، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي، وقال ابن سلام: إن التأبين مدح الميت[3].

وذكر قدامة بن جعفر أنه ليس بين الرثاء والمدح فصل إلا ذكر اللفظ الدال على أنه لميت، فكلا الغرضين يشير إلى الفضائل الأربع: العقل والشجاعة والعفة والحلم، وقد يصف الشاعر الميت بالكمال الجامع للفضائل[4].

وممن اشتهر من الشعراء في نظم الرثاء، وكانت مرثياتهم مشهورة لجودة السبك، وحرارة العاطفة، وفنية الصورة المعبرة؛ الخنساء، تماضر بنت عمرو ابن الشريد السلمي، التي رثت أخويها صخراً ومعاوية؛ فتقول:

قذىً بعينكِ أم بالعينِ عوّارُ أم ذرفت إذ خلتْ من أهلها الدارُ
كأنّ عيني لذكراهُ إذا خطرت فيضٌ يسيلُ على الخدّينِ مدرارُ

وأبو ذؤيب الهذلي، الذي رثى أولاده الخمسة الذين قضوا في الطاعون؛ فيقول:

أمِنَ المنونِ وريبها تتوجعُ والدهرُ ليس بمعتبٍ من يجزعُ

ومتمم بن نويرة اليربوعي، الذي رثى أخاه مالك بن نويرة؛ يقول:

لعمري وما دهري بتأبينِ هالكٍ ولا جزعاً مما أصابَ فأوجعا

وكعب بن سعد الغنوي، الذي رثى أخاه، أبا المغوار؛ يقول:

تقولُ ابنةُ العبسي قد شبتَ بعدنا وكلُّ امرئ بعد الشبابِ يشيبُ

وأبو زبيد الطائي، الذي رثى ابن أخته اللجلاج؛ فقد قال:

إن طولَ الحياةِ غيرُ سعودِ وضلال تأميلُ طولِ الخلودِ

وعلقمة ذو جدن الحميري؛ الذي يقول:

لكلِّ جنبٍ ما اجتنى مضطجعُ والموتُ لا ينفعُ منهُ الجزعُ

ومالك بن الريب، الذي رثى نفسه؛ حيث قال:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً بجنبِ الغضى أزجي القلاصَ النواجيا

فهؤلاء المشهورون في الرثاء، ولكن هناك غيرهم أقل شهرة[5].

لم تقتصر المراثي على التفجع والبكاء على الميت؛ بل تعدى ذلك إلى بيان محاسن الميت وسيرته، فيقوم الراثي بذكر ما يتمتع به الميت من خصال حميدة يجدد بها ذكراه، ويعيد للسامعين قوة وشكيمة الميت من جهة، وحسن سيرته من جهة أخرى، وما يتمتع به من روح وأخلاق.

يذكر متمم بن نويرة سيرة أخيه حيث يقول:[6]

لقد غيّبَ المنهالُ تحتَ ردائهِ فتى غير مبطان العشياتِ أروعا
ولا برماً يهدي النساءُ لعرسهِ إذا القشعُ من بردِ الشتاءِ تقعقعا
لبيباً أعانَ اللبّ منهُ سماحةٌ خصيباً إذا ما راكب الجدبِ أوضعا
تراهُ كنصل السيفِ يعتزُّ للندى إذا لم تَجد عندَ امرئ السّوءِ مطمعا

يقول كعب بن سعد الغنوي في أخيه:[7]

أخي ما أخي لا فاحشٌ عند بيتهِ ولا ورَعٌ عند اللقاءِ هَبوبُ
أخي كانَ يكفيني وكان يعينني على نائباتِ الدهرِ حينَ تنوبُ
حليمٌ إذا ما سَورةُ الجهلِ أطلقت حُبى الشيبِ للنفسِ اللجوج غلوبُ
هو العسلُ الماذي ليناً ونائلاً وليثٌ إذا يلقى العُداة غَضوبُ

وتذكر الخنساء أخاها صخراً بقولها: [8]

وإن صخراً لَوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحارُ
وإن صخراً لمقدامٌ إذا ركبوا ... وإن صخراً إذا جاعوا لعقّارُ
وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ ... كأنهُ علمٌ في رأسه نارُ
جلدٌ جميلُ المحيا كاملٌ ورعٌ ... وللحروبِ غداةَ الروعِ مسعارُ
حمالُ ألويةٍ هبّاطُ أوديةٍ ... شهّادُ أنديةٍ للجيشِ جرّارُ
نحّارُ راغيةٍ مِلجاءُ طاغيةٍ ... فكّاكُ عانيةٍ للعظمِ جبّارُ

من هذه النماذج، وغيرها، نستطيع القول بأن للمرثية أجزاء ظاهرة تتعلق بالشاعر والمتوفى، حيث يعبر الشاعر عن لوعته وأساه، ويتذكر خصال الميت وسيرته، فالأمر يتعلق بدرجة تداخل مشاعر وأحاسيس مع السلوك الطيب للمرثي، وتنطلق المراثي الجاهلية من واقعهم غير المستقر، وتفكيرهم بالرعب الذي يشيعه الموت في أنفسهم؛ لأنه غامض ومبهم، إذ ما هذا الشيء الذي يأخذ العزيز من بين أيديهم دون أن يستطيعوا منعه؟ ولكن في الفكر الإسلامي تغير الموقف، وعرف المسلمون أن الموت مرحلة انتقال من دار إلى دار.

الرثاء في الفكر الإسلامي

من الأمور التي رسمها المسلمون لسيرة حياتهم، هو أنهم اعتمدوا على تطبيق مبادئ الإسلام، واعتماد بعض الآيات الكريمة في بيان إيمانهم وحبهم لرموز الإسلام؛ من مدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورثائه، ومدح أهل بيته الكرام، ورثائهم، ومدح الصحابة - رضوان الله عليهم - ورثائهم، واعتبروا ذلك من قيم الإسلام، وهذا تعظيم لشعائر الله - سبحانه وتعالى - وتطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[9].

وكثر الرثاء عند أتباع الفرق الإسلامية؛ من الخوارج، والشيعة، والزبيريين، والأمويين، وغيرهم من الجماعات الإسلامية، ولكن أبرز هذه الفرق الشيعة والخوارج لمقارعتهم للدولة الأموية، ودخولهم في معارك يسقط

فيها الأبطال والزعماء والقادة، وينبري الشعراء ينظمون المرثيات الطويلة في تعداد أوجه السلوك الحسن لهؤلاء، والأخلاق الحميدة التي يتمتعون بها.

الرثاء ليس فيه تملق، غالباً، أو حزن مصطنع، وحتى الأعداء يتقبلون تعزية أعدائهم، وإن كانوا يشكّون في صدق تلك التعزية، ولكنهم يتقبلونها على مضض، وإذا كان الرثاء صادراً من قلب محب - وغالباً ما يكون - فإن المرثية تقع موقعاً حسناً في قلوب أهل المتوفى، وربما يكافأ الشاعر لمشاعره تجاه الميت، وعلى بيان سيرة حبيبهم الذي فقدوه.

أدرك المسلم أن الموت انتقال من دار الدنيا إلى الآخرة، فهي إرادة الله التي كتبها على البشر، ولذلك اختلف مفهوم الموت من الفكر الجاهلي إلى الفكر الإسلامي؛ ففي الجاهلية كان الموت لغزاً محيراً، وسراً دفيناً، ولكنه صادق؛ لأنه يضع نهاية لحياة المباهج والمسرات، وإنه غامض، فيدعون على الدنيا التي أخذت من يحبون، ويحيلون الموت إلى الدهر. أما في الإسلام فالموت حق، علينا تقبله؛ لذا جاءت المراثي تعدد أخلاق الميت، وإن حسن أعماله يستحق عليها الخلود في الجنة، ولأهله وأصحابه الصبر والسلوان، فكانت للمراثي أهمية دينية هي التسليم بقضاء الله وقدره[10].

الرثاء عند الشيعة

الشيعة هم من شايعوا الإمام علي بن أبي طالب وأهل بيت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ونشوء التشيع يرده بعض المؤرخين إلى زمن رسول الله، أما أغلب المؤرخين فيردونه إلى زمن الإمام علي نفسه، وأبرزت المصائب التي حدثت لآل البيت هذا الاتجاه بشكل أكبر، وخاصة بعد مقتل الإمام الحسين - عليه السلام - في كربلاء، على يد الجيش الأموي، ولكن تطور فكر الشيعة أدى إلى بروز علماء كبار كتبوا في الفقه والتشريع الإسلامي من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف[11].

كان لمقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ووفاة الإمام الحسن بن علي، ومقتل الإمام الحسين بن علي، ومقتل الإمام زيد، وغيرهم من أئمة أهل البيت الأثر

الكبير في شيوع شعر الرثاء بين الشيعة، وكذلك سقوط أبطال الشيعة في معاركهم؛ في معارك الإمام علي، وكربلاء، وثورة التوابين، وانتفاضات الشيعة، أدى إلى كثرة قصائد الرثاء في شعر الشيعة في العصر الأموي، ولكن رثاء هؤلاء لم يتوقف على هذا العصر بل استمر في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا.

يقول أبو الأسود الدؤلي في رثاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: (12)

أفِي شَهرِ الصّيامِ فَجعتُمونا بِخَيرِ النّاسِ طُراً أجمَعينا

وتأخذ حادثة مقتل الحسين بن علي بعداً كبيراً في رثاء الشيعة، وكثر النائحون على الحسين، فيقول عقبة بن عمرو السهمي: (13)

مررتُ على قَبرِ الحُسينِ بكربلَا ففاضَ عليهِ من دموعي غزيرُها
إذا العينُ قَرت في الحياةِ وأنتُم تَخافونَ في الدنيا فأظلَمَ نورُها

وأكثر ما أشجى الشيعة مقتل الحسين بن علي - رضي الله عنه - فبكوه بكاءً مراً، وتحسروا على عدم نصرته، وسالت دموعهم مدرارة على خدودهم، ولم يتوقف البكاء في أي عصر من العصور. وهذا خالد بن معدان يقول: (14)

جاؤوا برأسك يا بن بنت محمد متزملاً بدمائه تزميلا
وكأنما بك يا بن بنت محمدٍ قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولما يرقبوا في قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما قتلوا بك التكبيرَ والتهليلا

والرثاء الشيعي لا يقتصر على اللوعة والحزن، بل يتعدى ذلك إلى وصف الوقائع، وما حدث للمقتولين. يقول عبد الله بن الزبير الأسدي في وصف ما حدث لهانئ بن عروة، ومسلم بن عقيل، اللذين قتلهما عبيد الله بن زياد، والي الكوفة: (15)

إذا كنتِ لا تَدرينَ ما الموتُ فانظري إلى هانئ في السوقِ وابن عقيلِ
إلى بطلٍ قد هشّمَ السيفُ وجهه وآخر يَهوي في طمار قتيلِ
ترى بطلاً قد غيّرَ الموتُ لَونه ونضح دمٍ قد سالَ كلَّ مسيلِ

يقول الفضل بن العباس في مقتل زيد بن علي بن الحسين، وما حدث له من نبش قبره، ومن ثم صلبه في الكناسة: [16]

ألا يا عينُ لا ترقي وجودي بدمعِكِ ليسَ ذا حينَ الجمودِ
غداةَ ابنُ النبيّ أبو حسينٍ صليبٌ بالكناسةِ فوقَ عودِ
يظلُّ على عمودهم ويمسي بنفسي أعظمٌ فوق العمودِ
تعدى الكافر الجبارُ فيه فأخرجه من القبر اللحيدِ
فظلوا ينبشونَ أبا حسينٍ خضيباً بينهم بدمٍ جسيدِ

لا يخلو الرثاء الشيعي من هجاء الأمويين، وأنصارهم، وكل من يعادي أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبعض هجاء الأمويين كان مقذعاً، أو لائماً لتصرفاتهم تجاه بني هاشم، أو تحميلهم تبعات مقتل الأئمة من آل البيت، ومن مرثية للشاعر أبي الأسود الدؤلي يقول فيها: [17]

أقول وذاك من جزعٍ ووجدٍ أزال اللهُ ملكَ بني زيادِ
وأبعدهم بما غَدروا وخانوا كما بعدت ثمودُ وقوم عادِ
ولا رجعت ركائبهم إليهم إلى يومِ القيامةِ والتنادِ

ويقوم الشاعر أبو دهبل الجمحي بصب نار غضبه على بني أمية في رثائه للحسين بن علي، عليه السلام، ويصف الأمويين بأنهم عصابة أفسدت الدين، حيث يقول: [18]

تبيت سكارَى من أميةَ نوَّماً وبالطفِّ قتلى لا يَنام حَميمُها
وما أفسَدَ الإسلامَ إلا عصابةٌ تأمّر نوكاها ودام نعيمُها
فصارت قناةُ الدينِ في كفِّ ظالمٍ إذا اعوج منها جانبٌ لا يقيمها

يتضح من خلال هذه المقطوعات أن الرثاء الشيعي عميق في النفس الشيعية، والمصائب التي ابتلي بها آل البيت الشريف زادت هذا الشعور، فعبروا بكل ما يشعرون به من حب وألم ووجد بهذه الأبيات المثيرة للحزن والكآبة؛ لذا أرى أن قصيدة الرثاء الشيعية، في معظمها، تنقسم إلى الأقسام الآتية:

1 - إظهار الحزن والتوجع والألم لفقد الأئمة من آل البيت.

2 - وصف الأحداث وما جرى على آل البيت في المعارك الحربية، ومقتل الأئمة.

3 - هجاء بني أمية وولاتهم، والدعاء عليهم.

4 - تمني ما في نفوسهم من زوال ملكهم، وتشتيت شملهم.

الرثاء عند الخوارج

الخوارج هم من خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب، وهم على النقيض من الشيعة، وتطلق عليهم عدة أسماء؛ منها: الحرورية، والشراة، والمحكمة، ثم انقسموا إلى أربع فرق، هي: الصفرية؛ أتباع عبد الله بن صفار، والأزارقة؛ أتباع نافع بن الأزرق، والنجدات؛ أتباع نجدة بن عامر، والإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض، ويختلفون فيما بينهم، ولم يبق منهم إلا الإباضية لاعتدالهم، ووجود فقيه بينهم هو جابر بن زيد، ولكن معظمهم أذاقوا الدولة الأموية الأمرين بقتالهم لها، ودخولهم في حروب لا يخافون الموت فيها؛ فيقول شاعرهم البهلول بن بشر:[19]

من كان يكره أن يلقى منيته فالموتُ أشهى على قلبي من العسلِ

لذلك سقط عدد كبير من المقاتلين والقادة صرعى بأسياف الجيوش الأموية.

عبر الشاعر الخارجي عن حزنه وحبه للمقاتلين الذين سقطوا في معاركهم، ووصفوا المعارك التي يشيب لها الولدان، وكان شعر الرثاء أكثر أشعارهم لما فيه من تعبير لسيرة حياتهم، وعدم استقرارهم، وتلفهم الحسرة والألم على قتلاهم، وهذا ما عبر عنه عمران بن حطان بعد أن قتل مرداس بن أدية، أحد زعمائهم، بقوله:[20]

يا عين بكِّي لمرداسٍ ومصرعهِ يا رب مرداسٍ اجعلني كمرداسِ
تركتني هائماً أبكي لمرزئتي في منزلٍ موحشٍ من بعدِ إيناسِ
أنكرتُ بعدكَ من قد كنتُ أعرفه ما الناسُ بعدكَ يا مرداسُ بالناسِ

إيمان الخوارج بمبادئهم قويّ، وهم شديدو التعلق بالدين، ولهم دوي في عبادتهم وصلواتهم، وعندما يصفهم شاعرهم فإنما يعبر عن واقعهم، وهذا شاعرهم عيسى بن فاتك يصفهم من خلال رثائه لأبي بلال بقوله: (21)

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوهُ فيسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومهمُ فقاموا وأهلُ الأرضِ في الدنيا هجوعُ
لهم تحتَ الظلامِ وهم سجودٌ أنينٌ منهُ تنفرجُ الضلوعُ
وخرسٌ بالنهارِ لطولِ صمتٍ عليهم من سكينتهم خشوعُ
يعالون النحيبَ إليهِ شوقاً وإن خفضوا فربّهمُ سميعُ

الخوف من الله، أو سوء المنقلب سيطر على الخوارج، فنراهم يطيلون في صلواتهم، وفي ركوعهم وسجودهم، ويبكون حر البكاء من ذلك الخوف الذي سيطر عليهم، ويرون أن الله يراقبهم ويسمعهم؛ لذا كانت عبادتهم صادقة، ومعبرة عما يعتقدونه.

وقد وصف أحد شعرائهم إخوانه من الخوارج، في قصيدة له، منها: (22)

هم الأسودُ لدى العرينِ بسالةً ومن الخشوعِ كأنهم أحبارُ
يمضون قد كسروا الجفونَ إلى الوغى متبسمينَ وفيهم استبشارُ
فكأنما أعداؤهم أحبابُهم فرحاً إذا خطر القنا الخطارُ
يردونَ حوماتِ الحمامِ وإنما تالله عند نفوسهم لصغارُ

هكذا يصف الشاعر سلوكيات الخوارج، وتسيطر عليهم نوازعهم وأفكارهم، وكان قتالهم شرساً مراً، لا يهابون الموت أوقع عليهم، أم وقعوا عليه.

الرثاء عند الخوارج ليس للبكاء والعويل، وإخراج ما في النفس من أسى وحزن على القتلى من المقاتلين، أو على الزعماء الروحيين؛ بل هو ثورة على المبادئ والقيم التي يتبناها أعداؤهم، ويعتبرون أن ما يتبنونه من قيم الإسلام ومبادئه هي القيم الحقيقية للإسلام ويرفضون غير ذلك، فقصيدة الرثاء تحمل في

طياتها تلك القيم والمبادئ، ويصفون أعداءهم بالنفاق، والكفر والبعد عن مبادئ الإسلام. يقول حبيب بن خدرة الهلالي: [23]

يا ربُّ إنهم عصوكَ وحكّموا في الدينِ كلَّ ملعَّنٍ جبَّارِ
يدعو إلى سبلِ الضلالِ والردى والحقُّ أبلجُ مثلَ ضوءِ نهارِ

هكذا يبدو الرثاء الخارجي، فالرثاء ليس للبكاء والعويل؛ بل هو طريق للفوز بالجنة، والخلاص من دولة الجبارين، والمحلّين لحرمات الخوارج. يقول عبيدة بن هلال اليشكري في رثائه للحصين بن مالك: [24]

قل للحصين لقد أصبت سعادة وما كنت فيما رمته بمعيبِ
وما كان في جمع المحلّين فارسٌ يبارزهُ في النقعِ غيرُ حبيبِ

قصيدة عمرو بن الحصين العنبري، في رثائه لأبي حمزة وغيره من الشراة، تمثل شعر الرثاء الخارجي، حيث تشعر بحرارة الحسرة والحرقة في الفؤاد، وإظهار السلوك الخارجي من حيث الصلاة والقيام، ومساعدة الإخوان، والصبر والجلد بمواجهة الجيش الأموي الذي يطاردهم، وتمني الشاعر أن يكون معهم ليفوز بالجنة والرضوان، فيبدأ قصيدته بذكر هند، التي ربما تكون زوجته، فيقول: [25]

هبّت قُبيلَ تبلُّج الفجرِ هندٌ تقولُ ودمعُها يجري
إن أبصرت عَيني مدامعها ينهلُّ واكفُها على النحرِ

ثم يترك الدموع واللوعة إلى تمني أن يكون مع أولئك الراحلين، ثم يصف المتوفين، فيقول:

متأهلينَ لكلِّ صالحةٍ ناهينَ من لاقوا عن النكرِ
متأوِّهون كأن جمرَ غضى للخوفِ بين ضلوعهم يسري
تلقاهمُ أُلاً كأنَّهم لخشوعهم صدروا عن الحشرِ

ثم يتناول أحد المقاتلين ويصف خشوعه، وبسالته في المعركة، وهو ذو نخوة ونجدة لإخوانه، وإذا تكلم فإنه طلق اللسان، يخرج للناس درر الكلم، ثم

يتناول آخر ويصفه بالوصف نفسه، في سلوكه وفي معاركه، فهذه القصيدة الطويلة يذكر فيها عمراً، أحد قادتهم فيقول:

وولي حُكمهم فُجعتُ به عمرو فواكبدي على عمرِو
قوال محكمة وذي فهمٍ عفُّ الهوى متثبِّت الأمرِ

ثم يأتي على الجمع بين الاثنين ليمزج سلوكهما المعبر عن أخلاق الخوارج في السلوك الديني، والخوف من الله، وحب الذهاب إلى الجنة، مما يدفعهم إلى طلب الشهادة.

طريقة حياة الخوارج تفرض عليهم التخفف من طول البكاء والأسى والحزن، فهم ينتقلون من مرحلة اللوعة والأسى إلى وصف الأبطال الذين سقطوا في المعارك، وهم يعتقدون أن الموت ما هو إلا طريق لحياة النعيم في الآخرة، ويظنون أن البكاء الطويل يبعث على اليأس والقنوط، ولكنهم يشجعون أنفسهم لخوض معارك جديدة، ولا يجدون أن هذه المعارك هي نهاية الأحزان، بل يأملون أن يحصلوا على بطاقة دخول إلى الجنة، والفوز في المعارك القادمة، فهم مقاتلون أشداء لا يرهبهم الموت، ولا يخشون الأعداء، وإن كانوا أضعاف عددهم.

من قراءتنا لقصيدة الرثاء لدى الخوارج نجدها تنقسم إلى ما يأتي:

1 - بروز الأسى والحسرة في بداية قصيدة الرثاء.

2 - وصف لسلوك الشهداء الديني وتعلقهم بالقرآن.

3 - وصف أعداء الخوارج - وخصوصاً الأمويين - بالخروج عن الدين، واستحلال المحرمات.

4 - بسالة المقاتلين، وعدم الخوف من الحروب، بل الإقدام على القتال.

5 - شوق الشاعر للمشاركة في المعارك، ومشاركة الأبطال في الجهاد.

وهكذا نرى أن شعر الرثاء الخارجي يتميز بميزات مختلفة عن غيره من الرثاء، ولكنه يشترك مع الشيعة في بعض الجوانب.

عوامل الرثاء المشتركة بين الشيعة والخوارج

يظهر أن الرثاء عند الشيعة والخوارج لا يختلف في جوهره، وإن كان مختلفاً في وسائله، وقصيدة الرثاء إحدى وسائل التعبير عن حب الشعراء لمن فارق الحياة، وخاصة إذا كانوا من الزعماء والأئمة، واستعراض هذه القصيدة عند الشيعة والخوارج يحتاج إلى وقفة.

تبدأ معظم قصائد الرثاء بإظهار الحزن والأسى على الفقيد، ولكنها عند الشيعة أكثر عمقاً في إبراز اللوعة والأسى، في حين لا يقف الخوارج طويلاً عند هذه النقطة، بل يتعدونها إلى ما هو أهم من التعمق في الحزن والبكاء، إلى إظهار بطولة الرجل، وكيف قاتل ببسالة حتى سقط، وتستعرض قصيدة الرثاء الخارجية حياة الميت وسلوكه أكثر من التفجع عليه.

يقول أبو الأسود الدؤلي، من شعراء الشيعة، في رثائه للإمام علي بن أبي طالب: [26]

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ فلا قرت عيونُ الشامتينا
أفي شهرِ الصيامِ فجعتمونا بخيرِ الناسِ طراً أجمعينا

وتقول مليكة الشيبانية، من شعراء الخوارج: [27]

أبكي المغيّب في الثرى بينَ النضائدِ والصفائحْ
أبكي وحق لي البكا ءُ مع الغوادي والروائحْ
فلأبكينَّك ما غدت شمسٌ وما جرت البوارحْ

وتتضمن قصيدة الرثاء حب الانتقام من الأعداء، الذين تسببوا في مقتل هذا البطل، الذي أذلهم وقاتلهم حتى لقي حتفه. يقول أبو الأسود الدؤلي: [28]

أقول وذاك من جزع ووجدٍ أزال اللهُ ملكَ بني زيادِ
وأبعدهم بما غدروا وخانوا كما بعدت ثمودُ وقومُ عادِ
ولا رجعت ركائبهم إليهم إلى يوم القيامةِ والتنادِ

ويتساوى الشيعة والخوارج في ذلك، ولكن الشيعة يترجمون انتقامهم بالكلام القاسي. قال أحد الخوارج يرثي جوَّاز الضبي: [29]

لا بارك الله في قومٍ أجاز لهم حُكامُهم أن أصابوا الحرَّ جوّازا

يبدو أن رثاء الخوارج يصف القتلى أكثر من الدعاء على قاتليهم، ومن النادر أن نرى شتائم الأعداء في معظم مرثياتهم والدعاء عليهم، فهم يترجمون رثاءهم إلى عمل على أرض الواقع، أكثر من أخذ حيز كبير من ألفاظ القصيدة.

ويطمح كل من الشيعة والخوارج إلى الفوز بالجنة، وهو طموح يشمل الفريقين، غير أن قصيدة الرثاء عند الخوارج أقوى منها عند الشيعة؛ لأن من صيحات الخوارج القتالية: " الرواح، الرواح إلى الجنة " فتنعكس هذه الصيحة على قصيدة الرثاء، وتصبح القصيدة موجهة تجاه هدف أخروي، وليس إلى هدف دنيوي. يقول كعب بن عميرة: [30]

شرى ابنُ حُديرٍ نفسهُ اللهَ فاحتوى جناناً من الفردَوسِ جمّاً نعيمها

وتحتوي قصيدة الرثاء عند الشيعة والخوارج هجاء الأعداء من الأمويين، وأنصارهم؛ فهم الحكام الذين أرسلوا الجيوش لمقاتلة أبطال الفريقين، فالدعاء عليهم أبرز عند الشيعة منه عند الخوارج. يقول الكميت بن زيد الأسدي في قصيدته: [31]

فتلك ملوك السوءِ قد طال ملكهم فحتّامَ حتّامَ العناءُ المطولُ

رضوا بفعالِ السوء من أمر دينهم فقد أيتموا طوراً عداءً وأثكلوا

ولكن الخوارج يصفونهم بالمحلّين لمحرمات الدين، والكفر، والبعد عن تعاليم الدين الحنيف، ويصفهم الشيعة بالظلم، والفساد، والبعد عن تعاليم الدين أيضاً.

تتميز قصيدة الرثاء عند الشيعة باللوعة والحزن العميق، وتفيض عاطفة، وشعوراً بالأسى والحزن، فالقارئ ربما يصاحب الشاعر في مشاعره، ويتعاطف معه، ولكن قصيدة الرثاء عند الخوارج تتسم بالصرامة والقوة بحيث تستفز

القارئ إلى الظلم الذي وقع على هذه الطائفة، وهي قصيدة قتالية تنم عن تفكير هذه الفئة في دخول الحروب، وارتياد المعارك.

الحقل المعجمي للرثاء بين الشيعة والخوارج

عبر شعراء الشيعة عن حبهم لآل البيت الكرام بكثير من قصائد الرثاء، وأسبلوا خلالها الدموع على الخدود، وزادوا فيها حتى لا تكاد تخلو قصيدة رثاء من دموع وزفرات، ومن ذلك قول الشاعر:

فاض عليه من دموعي غزيرها

وقول الشاعر يزيد بن ثبيط العبدي:[32]

أبكي يزيد مجدلاً وابنيه في حر الهجيرِ

وقول الشاعر فضل بن العباس[33]:

يا عين لا ترقي وجودي بدمعك ليس ذا حين الجمودِ

ولم يكتف الشعراء بالدموع في رثائهم، بل بالنحيب والعويل في مثل قول الشاعر السيد الحميري:[34] "**عين جودي بعبرة وعويل**"، وحزن الشاعر وأساه لا يكمن في ألفاظ البكاء والعويل، بل في الحزن الذي يلف نفس الشاعر فينعكس على استخدامه لروح الحزن والأسى.

هذا الألم الذي يعصف بقلب المحب لآل البيت يلازمه وصف لحالات الإيمان، الذي يتمتع به آل البيت - عليهم السلام - مثل قول الشعراء: أحب محمداً، رحمة الله عليه، قتلوك عطشاناً، آل بيت محمد، ابن خير الناس، وغيرها، توضح مدى الحب الذي يكنه الشعراء لآل البيت، وهذا الأمر يفرض على الشعراء كره قاتلي بعض أفراد آل البيت، فيصفونهم بأبشع الأوصاف، مثل قول الشاعر أبي دهبل الجمحي:[35] "تبيت سكارى من أمية نوماً"، وإن أعداء آل البيت قد أفسدوا الإسلام، وضيعوا قيمه ومبادئه، فقال شاعرهم:

وما أفسد الإسلام إلا عصابة تأمر نوكاها ودام نعيمها

وعبر عنه شاعر آخر بقوله: سطوة آل حرب، أو قول الشاعر: تعدى

الكافر الجبار. ولا تقتصر تعابير الشعراء على هذه الألفاظ بل تتعدى ذلك إلى الشتائم مثل قول الشاعر: "كلاب عوت"، أو قول شاعر آخر: "أمير غادر"، وقول شاعر آخر: "أسلمتموه بيد الظالمين"، ولم يترك شعراء الشيعة موبقة إلا ولصقوها ببني أمية انتقاماً من قتلهم للحسين وزيد ابني علي، وغيرهما، كما قام الأمويون بقتل أفراد آخرين لهم وزنهم في تاريخ الإسلام.

ودعا شعراء الشيعة على بني أمية ولعنوهم في قول شاعرهم عبد الله بن كثير السهمي[36]:

"لعن الله من يسب علياً وحسيناً من سوقة وإمام"

وقول الشاعر: "صب الإله عليكم غضباً جيش الفتح أو بدر"، وقول الشاعر: "قاتل الله أمة قتلونا".

وحب الانتقام لدى شعراء الشيعة أدى بهم إلى استعمال ألفاظ الحزن والأسى لوصف حالتهم، ولكنهم لم ينسوا أن يصبوا جام غضبهم على أعدائهم فاستخدموا أقسى الألفاظ في وصف الأمويين؛ مثل: الظالمين، جفاة نزار، سكارى، الجبابرة، الكافر، والغادر، الخائن، وغير ذلك من الألفاظ الشنيعة، التي تعبر عما يجيش في صدورهم من غضب مستعر.

عندما قتل الأمويون الحسين بن علي، وزيد بن علي، وحجر بن عدي وأصحابه، وغيرهم صور الشعراء هذه المشاعر الجياشة بأن الأرض أصبحت مريضة لفقد هؤلاء. يقول سليمان بن قتة في مقتل الحسين:

ألم تر أن الأرضَ أضحَت مريضةً لفقد حُسين والبلاد اقشعرتِ

وكان قتلهم أذل المسلمين، وسقطت قناة الدين في كف ظالم لا يستطيع أن يدير شؤون الحكم حتى إذا اعوج جانب لا يستطيع أن يقيمه لعجزه عن إدارة الدولة.

إن مطاردة الدولة الأموية للخوارج الثائرين جعلتهم غير مستقرين في مكان واحد، فهم ينتقلون من معركة لأخرى، مما أدى إلى كثرة القتلى بينهم، وخاصة من زعمائهم، فيجرح شعور شعرائهم، ويقومون برثاء القتلى منهم، ويعبرون

عن صدق حبهم، وخالص وفائهم لهؤلاء القتلى، فسالت دموعهم على الخدود، ومن شواعرهم أخت حازوق التي تقول: "أعيني جودا بالدموع على الصدر" وليس فقط على الخدود؛ بل تسيل حتى تبلغ الصدر، وقول الشاعر الأشل الأزرقي:[34] " فعمَّ نزاراً بالبكا والتحوُّب"، وهؤلاء الذين قتلوا رفعوا درجاتهم إلى العلا في قول الشاعر حبيب بن خدرة الهلالي:[37] "أبكي الذين تبوؤا العلا".

تشير غزارة الدموع إلى مكانة الرجل بين قومه وأحبابه، فينعكس ذلك على طريقة تعبير الشاعر، في مثل قول الشاعر حسان بن جعدة:[38] "يا عين أذري دموعاً منك تسجاما"، وقول الشاعر الضحاك بن قيس:[39]

يا عين أذري دموعاً منك تهتاناً وابكي لنا صحبةً بانوا وإخوانا

على أن الشاعر الخارجي لا يذرف الدموع خالية من وصف المجاهدين وسلوكهم، ويستخدم ألفاظاً تدل على صلاح المقاتلين وسمو أخلاقهم، وعفتهم وشرفهم، في قول الشاعرة أخت حازوق:[40] " قراع الكماة لا جنوس ولا ضجر"، وقول الآخر: "خير مقاتل يرجى ويخشى بأس من يحاربه"، أو قول شاعرهم: "حلو شمائله"، وقول الشاعر: "متأوهون كأن جمر غضى"، وقوله: "لهم تحت الظلام وهم سجود أنين".

ينعكس عمق التدين عند الخوارج على الشعر، ومن أحب الأسماء إليهم اسم "الشراة"، وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[41]، فهذه الشراية بمعنى البيع لله تنعكس على الشعر لبيان تعلقهم بالدين، فيقول الشعر: "باع لله نفسه"، ويقول الآخر: "شرى نفسه لله"، وقول الشاعر: "شباب أطاعوا الله"، فهو "لا يخشى سوى الله"، وهؤلاء المقاتلون قد كانوا "فوارس باعوا الإله نفوسهم"، وكل واحد منهم باع دار الدنيا بدار الآخرة "باع داراً بأغلى صفقة الدار".

كيف يرى الشاعر الخارجي أعداءه، وهو يرثي المقاتلين؟ وما نصيب من قتلهم؟ لا شك أن الشاعر يدرك حملات الدولة الأموية تجاه الخوارج، فهذه

الجيوش "ملحادة غُدُرُ"، وإنهم يعيشون في ضلال بحسب قول الشاعر: "بينوا ضلالهم"، ومثل هذه الألفاظ تدل على الضلال والانحراف عن جادة الحق برأي شعراء الخوارج.

ونصيب المقاتلين الذين ضحوا بأرواحهم، أو باعوا أنفسهم لله، الدخول إلى الجنة مكافأة لهم على بذل النفس في سبيل الله. يقول شاعرهم: "أصبحوا في جنان الخلد جيرانا"، وأصبحت الجنة لهم في قول الشاعر: "الله يجزيك جنته"، فما استخدمه الشاعر من ألفاظ تشير إلى عظم المحن التي مرت على الخوارج، فعبر عنها شعراؤهم بالألفاظ المناسبة، والدالة على المعاني المطلوبة.

الأسلوب هو الطريقة التي يبني بها المبدع فنه وإبداعه، ولذا قيل الأسلوب هو الرجل، وتعريفات الأسلوب كثيرة، أو أنها خضعت لدراسات النقاد فعرفوها بحسب دراساتهم، أو إضافاتهم لهذا العلم الذي ظهر بدراسات دي سوسير، ثم تلاميذه، إلى أن أصبح علماً قائماً بذاته سنة 1960م[42].

والحزن شعور عام بين بني البشر، يعبر عنه الشعراء بالرثاء، الذي هو فن شعري مملوء بالمشاعر الجياشة، والألم والحسرة لفقد العزيز الذي كانت له مكانة كبيرة عند هذا الشاعر، أو ذاك، وشعراء الشيعة والخوارج مروا بهذه التجربة الشعورية، واستطاعوا أن يرسموا طرقهم الفنية في التعبير عن ذواتهم وأفكارهم المملوءة بالأسى والحزن.

تناول شعراء الشيعة والخوارج البكاء على أنه تعبير عن الحزن والألم في نفوسهم بطرق مختلفة؛ يقول الشاعر الشيعي[43]:

ألا يا عين لا ترقي وجودي بدمعك ليس ذا حين الجمود

بينما يعبر الشاعر الخارجي بقوله:[44]

يا عين أذري دموعاً منك تسجاما وابكي صحابة بسطام وبسطاما

إن اختيار الألفاظ بين الشاعرين يكاد يكون واحداً، فكلاهما يخاطب عينه "يا عين" واختار الشاعر الشيعي كلمة: جودي، واختار الآخر كلمة: أذري، والمعنى هنا واحد عند الشاعرين.

وشاع استخدام لفظ الجلالة في شعر الرثاء عند الفريقين، غير أن توظيف

تلك اللفظة العزيزة مختلفة لديهما، في معظم الأحوال؛ فالشاعر الشيعي استخدمها لطلب النجدة والانتقام من القتلة: قاتل الله أمة قتلونا، صب الإله عليكم غضباً، أزال الله ملك بني زياد، لعن الله من يسب علياً. وهكذا يستعين الشاعر الشيعي بالله لينتقم من أعدائه، الذين قتلوا آل البيت. ولكن الشاعر الخارجي يوظف هذه اللفظة توظيفاً آخر حيث يقول: باع نفسه لله، شباب أطاعوا الله، لا يخشى سوى الله، شرى نفسه لله، وهكذا يشعر الشاعر الخارجي، في معظم توظيفه، بأن المقاتل الذي سقط إنما كان بدافع من حبه لهذا الدين، وضحى بنفسه لله.

وعند وصف المقاتلين من الفريقين نجد أن تعبير الشاعر الخارجي يدل على قوة المقاتلين واستبسالهم في المعركة، بينما عند الشاعر الشيعي يدل على صلاحهم وديانتهم وقربهم من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم؛ لذا كان قتلهم محرماً. يقول الشاعر الخارجي: قراع الكماة لا جنوس ولا ضجر، خير مقاتل يرجى ويخشى بأسه من يحاربه، يجاهد في الله، وغير ذلك من تعبيرات تشير إلى قوة، أما الشاعر الشيعي فيقول: ابن خير الناس، آل بيت محمد تقتلهم جفاة نزار، وغير ذلك من تعابير تؤدي إلى صلاح آل البيت وقربهم من رسول الله.

تتفق الفرقتان على هجاء الأمويين؛ لكونهم أعداء الفريقين، غير أن هجاء شعراء الشيعة أقسى وأمر من هجاء شعراء الخوارج، وهذا الهجاء ضمن قصيدة الرثاء. يقول الشاعر الشيعي: **تبيت سكارى من أمية نوماً، ما رعوا حقنا ولا حفظوا فينا وصاة الإله بالأقربينا، ولستُ بآيس من أن تصيروا خنازيراً، أخالد لا جزاك الله خيراً**، وغير هذه التعبيرات التي حطت من قدر الأمويين، ولكن الشاعر الخارجي يهجو بني أمية ويصفهم بصفات أخرى، فيقول شاعرهم: فلستَ بناج من يد الله، ما كان في جمع المحلين، يا رب إنهم عصوك، يدعو إلى سبل الضلالة والردى، وهكذا نرى أن هجاء الشيعة أقوى وأقسى على بني أمية من هجاء الخوارج على الرغم من أن الفريقين عانيا محاربة الأمويين لهما.

تتميز قصيدة الرثاء عند الخوارج بأنها قصيدة حربية فلا تعتني بالهجوم على الخصم، بل تترجم ذلك إلى الانتقام بالحروب والمعارك، ولا يهم الشاعر

الخارجي توجيه الشتائم للأمويين لإراحة النفس، بينما الشاعر الشيعي يبدو أنه عاجز عن القتال والدخول في معارك، لذا جاء هجومه على الأمويين أقسى وأقذع، وأقرب إلى التنفيس عما يشعر به من غضب عليهم، ويرتاح الشاعر الشيعي لهذا الهجاء.

لعل خيال الشاعر يسابق الفكرة في تصوير الحدث، فتبدو الصورة الفنية في أوضح خيال وأبدعه، وتعاهد الشعراء على إبراز صورهم الفنية لتعزيز المعنى، وإبراز أوجه الشبه بين الصورة الفنية والبطل الذي سقط، وقد استخدم شعراء الشيعة والخوارج الصور الفنية لبيان أوجه الشبه، وتصوير الحدث الدرامي.

أرى أن التشبيه في قصيدة الرثاء الخارجية أكثر مما هو في قصيدة الرثاء الشيعية. قال شاعر الخوارج: "كالليث يحمي عرينه"، وقال الشاعر الشيعي: "وليثاً في المشاهد" والتعبير هنا واحد حيث يصفان المقاتل بالليث، والشاعر الشيعي أيمن بن خريم الأسدي يستخدم البكاء في صوره فيقول:[45]

بكى نجدٌ غداةَ غدٍ عليكم ومكةُ والمدينةُ والجواءُ

وأما كثير بن عبد الرحمن فيقول: "بكتهُ الضواحي واقشعرت لفقده"، على أن مكانة المقاتل تبرز في شعر الخوارج واضحة، فيقول الشاعر الخارجي: "رمته صروف الدهر من حيث لا يدري"، ويقول آخر: "أورثونا منارات وأعلاما"، والمقاتل له مكانة كبيرة عند شعراء الرثاء، إذ يرون أن مكانته في الجنة، أو الغرف العليا، كما قال الشاعر الخارجي: "تبوؤا الغرف العلا".

يشعر الشعراء الشيعة أن الكون يتعاطف معهم في حزنهم، فيرون أن الأرض والكون مريضان لفقد أحد زعمائهم كما في قول الكميت بن زيد:[46]

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرت

والتعبير الشيعي عن الألم والحزن أبلغ من تعبير الشاعر الخارجي، غير أن الخارجي يترك البكاء وراءه ليضع الجنة مثوى المقاتل.

وهناك صور كثيرة تشير إلى تجسيد المعنوي في مثل قول الشعراء الشيعة:

فصارت قناة الدين، صب الإله عليكم غضباً، يروضون دين الله، وغيرها من الصور الخيالية، أما شعراء الخوارج فيقولون: باع لله نفسه، ترى عافيات الطير، كمدٌ تجلجل في فؤادي، والصور المختلفة التي يتخيلها الشاعر تعبر عما يجيش في صدره، ولكن التراث المذهبي ينعكس أيضاً على خيالهم فيصدر عنهم تلك الصور المختلفة.

الاقتباس من القرآن

جرت عادة معظم الشعراء العرب على الاقتباس من آيات القرآن الحكيم، ليعززوا أقوالهم، أو ينقلوا منها شواهد أو حكماً وغيرها. وشعراء الرثاء عند الخوارج والشيعة درجوا على ذلك التقليد.

يقول الشاعر الكميت بن زيد:

خفضتُ لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وهذا البيت مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[47]. ويقول الشاعر السيد الحميري:

أو كسبعين وافداً مع موسى عاينوا هائلاً من الأهوال

وهذا البيت يشير إلى الآية الكريمة: ﴿**وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا**﴾[48]. ويقول فضل بن العباس:

بها نسقي النفوسَ إذا التقينا ونقتل كلَّ جبار عنيدِ

وهذا البيت مأخوذ من الآية الكريمة: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾[49]، ولا شك أن التأثير القرآني موجود في نفوس المسلمين كافة، ولكن الشعراء يقتبسون من هذه الآيات ما يؤيد نظرتهم للأمور.

اعتاد الخوارج على الالتصاق بآيات القرآن المجيد، والتمسك بظاهر الآية، وأخذ شعراؤهم بعض هذه الآيات وأدرجوها في سياق قصائدهم. تقول شاعرتهم مليكة الشيبانية: [50]

ذهب الذي قد كان يأمرنا بالخير والمعروف والذكر

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الخوارج، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[51]. وتدور الشراة في عقول الخوارج منذ خروجهم من جيش الإمام علي بن أبي طالب، وتتردد في شعرهم بشكل عام، وفي شعر الرثاء بشكل خاص. يقول الجعدي بن أبي صمصام الذهلي في رثائه لصالح بن مصرح:[52]

أيا عين فابكي صالحاً، إن صالحاً شرى نفسه لله يبغي بها الخلدا

وهذا انعكاس لمفهوم الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[53]. ويحاول الشاعر الخارجي أن يتمثل بعض آيات القرآن الكريم، ويعتقدون أن الشهيد منهم له غرف في الجنة، كقول الشاعر حسان بن جعدة في رثائه لبسطام ورفاقه الذين سقطوا في المعركة:[54]

إني لأعلمُ أن قد أُنزلوا غُرفاً من الجنان، ونالوا ثَم خداما

وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[55]. والصفة التي يطلقها الشيعة على ولاة بني أمية هي الصفة نفسها التي يستعملها الخوارج لبني أمية، وهي الجبار العنيد، يقول الشاعر الصحاري ابن شبيب:[56]

كلُّ جبارٍ عنيدٍ أراهُ ترك الحقَّ وسنَّ الضلالا

وهوتعبير القرآن الكريم للطغاة في قوله عز وجل: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[57]، ولذلك تتفق الفرقتان على استعمال الآيات نفسها التي تعبر عن وصف أعدائهم من الأمويين.

ومنذ أن اعتنق العرب الإسلام وهم يتأثرون بألفاظ القرآن وأسلوبه، ونظم شعراء العرب شعرهم متأثرين ببلاغة القرآن المجيد، ولكن شعر الرثاء استأثر بكثير من الاقتباس من ألفاظ القرآن ومعانيه، ويستوي في ذلك جميع شعراء العرب، ومن أصابته مصيبة يجد في القرآن سلوته وأسوته.

الخاتمة

شعر الرثاء العربي صدى لكل من صدع قلبه ألم وحزن من شعراء العرب، وخاصة شعراء الشيعة والخوارج الذين عانوا ظلم الدولة الأموية، وملاحقة زعمائهم، ومواجهة موتهم وتشريدهم، فكانوا أكثر حرقة وألماً من غيرهم، ونظموا قصائد الرثاء في من رحل عن الدنيا.

عندما تتبعنا قصائد الرثاء الشيعية وجدناها قد ملئت حزناً وكمداً وألماً فاق كل تصور، ووجدنا قصائد الرثاء الخارجية مع الحزن والألم يبدو فيها التصميم على الاندفاع نحو القتال والحرب، والتصميم على المبدأ الذي ارتضوه، وإن قل الناصر، وانهزم المناصر.

يتبع شعراء الرثاء لدى كل من الشيعة والخوارج أسلوباً واحداً تقريباً في نظم القصائد؛ لأن الحرقة واحدة، والألم واحد، غير أن هناك بعض الفروق البسيطة بين الفريقين، فكل فريق يعبر عما اكتنز في ضميره من أصول التعبير، وما احتضن من ألفاظ تساعده على القيام بدوره في الرثاء.

لم تكن الصور البلاغية في شعر الرثاء مقصودة بذاتها بل جاءت عفوية، وبحسب ما يتطلبه المعنى، ولم تكن متكلفة صعبة الفهم والإدراك، فهي نوع من التعبير أراده الشاعر ليبرز ما في قلبه من لوعة وحزن، وكان الفريقان متساويين في استخدام الصور الفنية؛ لأنها تجسد القدرة على التعبير الفني عن الإحساس والشعور بالفقد.

الهوامش والمراجع

(1) الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس**، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت: وزارة الإعلام 1989م، ج25 مادة: رثي.

(2) الشورى، مصطفى عبد الشافي: **شعر الرثاء في العصر الجاهلي**، وكذلك شعر الرثاء في صدر الإسلام، القاهرة: الشركة المصرية العالمية، 1996م، ط1.

(3) الجمحي، محمد بن سلام: **طبقات فحول الشعراء**، ت: محمود شاكر القاهرة: مطبعة المدني، د. ت. 1 ك 203.

(4) قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص 118.

(5) القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب: **جمهرة أشعار العرب**، تحقيق: علي البجاوي، القاهرة: دار نهضة، 1967م، ج1، ص 106.

(6) الضبي، المفضل بن محمد: **المفضليات**، تحقيق: كارلوس لايل، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين 1920م، ص ص 526–527.

(7) جمهرة أشعار العرب، ص 693–694، وورد البيت في ديوان الشاعر كعب بن سعد الغنوي كذا:

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيوب

يذكر القرشي أن القصيدة لمحمد بن كعب بن سعد الغنوي، ولكنها تنسب إلى كعب بن سعد الغنوي في مصادر أخرى. وانظر أيضاً عبد الرحمن الوصيفي: **ديوان كعب بن سعد الغنوي**، القاهرة: مكتبة الآداب، 1998م، يقول الوصيفي: إن هذه القصيدة تنسب له ولغيره. ص ص 75–76.

(8) **ديوان الخنساء**، بيروت: دار صادر، 1963م، ص 48–49.

(9) القرآن الكريم، الآية 32 من سورة الحج.

(10) بشير، مقبول علي: **المراثي الإسلامية في صدر الإسلام**، بيروت: دار صادر، 1997م، ص 25– 31.

(11) آل كاشف الغطاء، محمد حسين: **أصل الشيعة وأصولها**، بيروت: دار الأضواء، 1990م، ص 118– 126.

(12) أبو الأسود الدؤلي: **ديوان أبي الأسود**، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1974م، ص 117.

(13) الأمين، محسن: **أعيان الشيعة**، بيروت: دار التعارف، 1986م، 8: 146–147.

(14) آشوب، ابن شهر: **مناقب آل أبي طالب**، قم: العلمية، 1956م، ص54.

(15) الأسدي، عبد الله بن الزبير: **ديوان عبد الله بن الزبير**، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، بغداد: دار الحرية، 1974م، ص 115– 116.

(16) أبو الفرج الأصفهاني: **مقاتل الطالبيين**، تحقيق: السيد أحمد صقر، طهران: مطبوعات إسماعليان 1949م، ص 149.

(17) ديوان أبي الأسود الدؤلي، ص 153.

(18) الجمحي، أبو دهبل: **ديوان أبي دهبل**، أصدره كرنكو وطبعته مجلة المجمع الملكي الآسيوي 22 من أكتوبر سنة 1910م، مجلد 22: 1037– 1075.

(19) أمين، فوزي محمد: **في شعر صدر الإسلام**، الإسكندرية: دار المعرفة، 1992م، ص 108.

(20) معروف، نايف: **ديوان الخوارج**، بيروت: دار المسيرة، 1983م، ص 116.

(21) ديوان الخوارج، ص 154.

(22) علي، محمد أبو المجد: **شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي**، القاهرة: دار الدعوة 1995م، ص 28.

(23) القاضي، النعمان: **الفرق الإسلامية في العصر الأموي**، القاهرة: دار المعارف، 1970م، ص 447.

(24) ديوان الخوارج، ص 93.

(25) ديوان الخوارج، ص 140–145.

(26) ديوان أبي الأسود، ص 117.

(27) ديوان الخوارج، ص 201.

(28) ديوان أبي الأسود، ص 153.

(29) ديوان الخوارج، ص 227.

(30) ديوان الخوارج، ص 180.

(31) الأسدي، الكميت بن زيد: **هاشميات الكميت بن زيد**، في كتاب الروضة المختارة، بيروت: الأعلمي، 1972م، ص 64.

(32) شبر، جواد: **أدب الطف**، بيروت: مؤسسة البلاغ، 1988م، ص 123– 125.

(33) شعر الرثاء والصراع السياسي، ص 80.

(34) شعر الرثاء والصراع السياسي، ص 81.

(35) كرنكو، فرتس: "ديوان أبي دهبل الجمحي"، **مجلة الجمعية الملكية الآسيوية**، أكتوبر 1910م، 22: 1037– 1075.

(36) الذهبي، شمس الدين: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مأمون الصاغرجي، بيروت: مؤسسة الرسالة 1985م، ط 3، 4: 318. وانظر كذلك محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، 8: 68.

(37) ديوان الخوارج، ص 19.

(38) ديوان الخوارج، ص 43.

(39) ديوان الخوارج، ص 49.

(40) ديوان الخوارج، ص 83.

(41) القرآن الكريم، آية 207 من سورة البقرة.

(42) ربابعة، موسى: **الأسلوبية: مفاهيمها وتجلياتها**، إربد: دار الكندي، 2003م، ص 9–41.

(43) العشاش، الطيب: **ديوان أشعار التشيع**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط، ص 322.

(44) ديوان الخوارج، ص 49.

(45) القتم، عبد الله: "شعر أيمن بن خريم الأسدي"؛ جمع وتحقيق، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، الكويت: جامعة الكويت 202: 2003–2004.

(46) شبر، جواد: **أدب الطف**، بيروت: مؤسسة البلاغ، 1988م، ص 123–125.

(47) القرآن الكريم، الآية 24 من سورة الإسراء.

(48) القرآن الكريم، الآية 55 من سورة الأعراف.

(49) القرآن الكريم، الآية 15 من سورة إبراهيم.

(50) ديوان الخوارج، ص 202.

(51) القرآن الكريم، الآية 157 من سورة الأعراف.

(52) ديوان الخوارج، ص 38.

(53) القرآن الكريم، الآية 207 من سورة البقرة.

(54) ديوان الخوارج، ص 49.

(55) القرآن الكريم، الآية 58 من سورة العنكبوت.

(56) ديوان الخوارج، ص 81.

(57) القرآن الكريم، الآية 15 من سورة إبراهيم.

* * *